

المُقدِّمة

● الحمدُ لله الذي هدانا لفضيلةِ حمِّدِه ، وَحدانا إلى تمجيدِه بمَجْدِه ، وأنزلَ الفُرْقانَ على عبدِه ، واختصَّهُ ببلاغِ رسالاتِه وعَهْدِه ، فدَعَا بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ إلى سبيلِ ربِّه ، وأطَلَعَ الإيمانَ من مَطْلَعِه وأهَبَّهُ من مَهَبِّه .

● اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أُمَّتِهِ ، واستَعْمِلْنَا بسُنَّتِهِ ، واشغَلْ قلوبنا بتذكاريه ومحبتِّه ، وانفَعْنَا بآثارِه وسيرتِه .

● اللَّهُمَّ يا مَنْ جعلتَ الأرضَ قراراً ، وفجَّرتَ خلالها أنهاراً ، وجعلتَ لنا من الشَّجَرِ الأخضرِ ناراً ، زيَّنا بالحلمِ ليكونَ لنا دِثاراً ، وأكْرَمنا بنورِ الفهمِ ليكونَ لنا شِعاراً .

● ونشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُهُ الذي ارتضى ، وحُسامُهُ المُضيءُ المُنتضى ، وأميينهُ الصَّادقُ المُصطفى ، الذي ختمَ به الأنبياءُ ووفى ، فكان الرِّؤوفَ الرَّحيمَ ، والرَّسولَ الحَلِيمَ ،

ذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، وَالْحَسَبِ الْكَرِيمِ ، وَالصَّفْحِ الْجَمِيلِ ،
وَالْحِلْمِ الْجَلِيلِ .
وَبَعْدُ :

● فَإِنَّ الْحِلْمَ ذِرْوَةٌ كُلِّ أَدَبٍ وَفَضْلٍ ، وَرَحِيقُ كُلِّ زَهْرٍ
وَقُلٌّ ، وَهُوَ لُبُّ كُلِّ كَرَمٍ وَنَدَى ، تَرشُحُ مِنْ أُرْدَانِهِ قَطْرَاتُ
النَّدَى ، فَتَرسُمُ لِلنَّاسِ طَرِيقَ الثُّورِ وَالهُدَى ، فَتَجْعَلُ الْعَبْدَ
بِالْحِلْمِ سَيِّدًا ، وَالْمَمْلُوكَ عَالِيًا وَإِنْ كَانَ أَمْرَدًا .

● وَمَنْذُ أَنْ جَاذَبْنَا الْآدَابَ الْإِسْلَامِيَّةَ حَبْلَ الْوُدِّ ، وَتَذَوَّقْنَا
أَطْيَابَ ثَمَارِهَا الْيَانِعَةِ بِمَا لَيْسَ لَهُ مِنْ حَدٍّ ، أَحْبَبْنَا أَنْ نَصُوغَ أَدَبَ
الْحِلْمِ بِكَلِمَاتٍ هَامِسَاتٍ ، وَنَنْظِمُهُ فِي عِبَارَاتٍ دَافِقَاتٍ
دَافِقَاتٍ ، تَزِينُ حَنَايَا الْقُلُوبِ بِجَمَالِ مَعَانِيهَا ، وَتَطْرُبُ الْأَلْبَابَ
بِسُخْرِ مَعَانِيهَا ، وَظَنَّا بِأَدَى الْأَمْرِ أَنْ نَنْظِمَ الْحِلْمَ قَرِيبُ
الْمَنَالِ ، فَإِذَا بِهِ بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الثَّوَالِ .

● وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ انْتَضَيْنَا الْقَلَمَ لِنَرْسُمَ بِالْحِلْمِ
أَجْمَلَ الصَّفْحَاتِ ، وَنَتَّقِي مِنْ زَهْرِ الرُّبَى أَنْفَعَ الْآدَابِ
وَالصِّفَاتِ ، لِتَكُونَ مَفْعَمَةً بِالْبِشْرِ وَالْأَنْسِ ، جَمِيلَةً التَّفْعِ كَسْنَا

الشَّمْسِ ، وَرُحْنَا نَجُوسُ جَدَاوِلِ الْآدَابِ لِنَتَعَمَّ بِأَنْدَاءِ الْأَبَابِ ،
وَنُقَدِّمُهَا سَائِعَةً هَيَّئَةً لِلشَّرَابِ ، فَتَتَغَدَّى بِهَا الْعُقُولُ وَيَحْلُو بِهَا
الْكِتَابُ ، وَيَكُونُ نَجْعَةً لِلحُضُورِ وَالغِيَابِ وَالْأَحْبَابِ .

● نَعَمْ ، أَحْبَابِنَا الْفُرَّاءَ الْأَعْرَاءَ ؛ إِنَّ الْحِلْمَ مِنْ
المَوْضُوعَاتِ الَّتِي يَحْسَبُ الْمَرْءُ أَنَّهَا دَانِيَةٌ الْقُطُوفِ ، رَقِيقَةٌ
الْأَسْتَارِ وَالشُّفُوفِ ، فَإِذَا مَا أَرَادَ اقْتِطَافَ جَنَى زَهْرِهِ
وَرِيحَانِهِ ، وَجَدَ الْمَصَاعِبَ فِي جَمْعِ أَشْكَالِهِ وَأَلْوَانِهِ ، فَهُوَ سَهْلٌ
لِلْهَوْلَةِ الْأُولَى ، صَعْبٌ النَّظْمِ مِنْذُ الصَّفْحَةِ الْأُولَى .

● وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ كَمْ لاقَيْنَا مِنْ مَشَاقِّ وَعَشْرَاتٍ فِي
الطَّرِيقِ ، لِنَنْظُمَ مَا تَنَاطَرَتْ مِنْ عَقْدِ هَذِهِ الْمَادَّةِ فِي كُلِّ فَعَجٍّ عَمِيقٍ ،
وَمَا تَبَاعَدَتْ مِنْهَا فِي بَطُونِ الْأَسْفَارِ ، وَأَعْمَاقِ الْمَصَادِرِ الْكِبَارِ ،
بِالإِضَافَةِ إِلَى نُذْرَةِ مَادَّةِ الْحِلْمِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ ، لِهَذَا كَلَّمَهُ أَحْبَبْنَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَوْضُوعُ سَهْلَ الْمَنَالِ
غَزِيرَ النَّعْمِ لَطِيفَ الطَّيْفِ وَالخِيَالِ .

● وَمِنْ خِلَالِ رِحْلَتِنَا الشَّاقَّةِ الشَّائِقَةِ فِي عَالَمِ الْمَصَادِرِ مَعَ
الْحِلْمِ ، اسْتَطَعْنَا - بِفَضْلِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ - أَنْ نَنْظُمَ هَذَا الْكِتَابَ فِي

سَبْعَةَ أَبْوَابِ سِمَانٍ ، وَقَفْنَا فِي أُولَاهَا بَيْنَ يَدَيْهِ الْجِلْمِ ، وَتَحَدَّثْنَا عَنْهُ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ ، وَالْأَدَبِ ، وَاللُّغَةِ ، ثُمَّ عَزَّزْنَا الْبَابَ الثَّانِي بِالْحَدِيثِ عَنِ الْجِلْمِ فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَفْضْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ ذَلِكَ بِمَا يَحْتَاجُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ ، وَكُلُّ مُتَأَدِّبٍ يُوَدُّ الْاِسْتِرَادَةَ مِنْ هَذَيْنِ الْمَصْدَرَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ : الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ .

● وفي الباب الثالث ؛ أبَحْرْنَا مَعَ الْجِلْمِ فِي وَصَايَا الصَّحَابَةِ ، وَكُبْرَاءِ التَّابِعِينَ ، وَعُلَمَاءِ الْأُمَّةِ .

● وَحَلَّقْنَا عَالِيًا عَالِيًا فِي الْبَابِ الرَّابِعِ مَعَ الْجِلْمِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، لِمَا لَهُ مِنْ صِلَاتٍ وَثِيقَةٍ مَعَ السُّوُدِّدِ ، وَكَرَمِ النَّفْسِ ، وَشَرِيفِ الْخِصَالِ ، وَكَانَ الْحَدِيثُ رَائِقًا شَائِقًا ، حَيْثُ عَزَّزْنَا ذَلِكَ بِالْحِكْمَةِ الطَّرِيفَةِ ، وَالطَّرْفَةِ اللَّطِيفَةِ ، وَالْقِصَّةِ الْخَفِيفَةِ ، لِتَكُونَ مَادَّتُنَا أَلِيفَةً .

● وَعَقَدْنَا الْبَابَ الْخَامِسَ لِيَكُونَ الْعَمُودَ الْفِقْرِيَّ لِهَذَا الْكِتَابِ ، فَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنِ الْجِلْمِ ، وَعَنِ الْغَضَبِ الْمَحْمُودِ ، ثُمَّ عَنِ بَوَاعِثِ الْجِلْمِ وَأَسْبَابِهِ ، وَعَنِ عِلَاجِ الْغَضَبِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِالذَّلَائِلِ الْمَفِيدَةِ ، الَّتِي تَغْرِسُ الْمُحَامِدَ فِي الْقُلُوبِ ،

وتُهذَّبُ الثُّفُوسَ ، وتَصْقَلُ الطُّبَاعَ .

● وفي البابِ السَّادِسِ تَعَرَّضْنَا لِلحِلْمِ بَيْنَ المَدْحِ وَالذَّمِّ ،
وذلك في أقوالِ العربِ وأمثالهم .

● وأما البابُ السَّابِعُ الخَاتَمُ ، فكانَ عَنِ الحِلْمِ في نَفَحَاتِ
الأدبِاءِ والحُكَمَاءِ ، فقد أوردنا بعضَ ما جادتْ به قرائحُ
الشُّعراءِ من لطيفِ الآدابِ ، وما أسفرتْ عنه أنفاسُ الحُكَماءِ
والفلاسفةِ في هذا المِضمارِ الجميلِ ، وقَفَّينا ذلك كُلَّهُ بِنُبْدَةٍ
من قِصَصٍ وأخبارِ حُلَماءِ العربِ في عصورها الخوالي .

● وسيلحظُ القارئُ الكريمُ المشقَّةَ التي تجسَّمناها لنُذلِّلَ
له ما صَعُبَ ، كما سيلحظُ كثرةَ المصادرِ وتنوعها ، والتي
جاء في مقدِّمتها : القرآنُ الكريمُ وعلومه ، وكذلك السُّنَّةُ
النَّبويَّةُ ومجالاتها ، يُضَافُ إلى ذلك أمَّاتُ المصادرِ الأدبيَّةِ ،
والتَّاريخيَّةِ ، والجغرافيَّةِ ، والدِّينيَّةِ ، والموسوعيَّةِ ،
ومعاجمُ اللُّغةِ ، وما رافقَ ذلك من دواوينَ عديدةٍ لشُعراءِ من
الماضي والحاضر ، وغيرِ ذلك كثيرٌ كثيرٌ ممَّا هو منشورٌ في مَتَنِ
الكتابِ وحواشيهِ .

● وها نحنُ أولاءِ نقترِبُ من خِتامِ هذه المُقدِّمةِ ، لنقترِبَ من قُلُوبِ القُرَّاءِ الأَعزَّاءِ ، ونتركهُمُ ينعمونَ في ديباجِ وحُلَلِ هذا الأدبِ الجميلِ المِعْطاءِ ، وينهلونَ من عَدْبِ رضايهِ الشَّدِيدِ الصَّفَاءِ ، وكُنَّا أملُ ورجاءُ أن يخصَّانا بدعواتِ وضيئاتِ ، إذ « الدُّعاءُ مُخَّ العِبادةِ »^(١) ، ونحنُ نطمعُ المزيدَ منهم في هذا المجالِ بالزِّيادَةِ .

● اللهمَّ اجعَلِ الحِلْمَ لنا الشُّعَارَ والدُّنَارَ والرَّفِيقَ ، وألهمنا شُكْرَكَ واجعَلْهُ لنا نِعَمَ الصِّديقِ .

● اللهمَّ واجعَلِ الحِلْمَ خُلُقاً لنا نُعامِلُ به العِبَادَ ، واهدنا إلى طريقِ الرِّشادِ والسَّدادِ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) .